

موضوع النفس:

هل هناك تمايز بين الجسم والنفس ، وما طبيعة العلاقة بينهما ؟

لا نجد تفصيلا حول موضوع النفس مثلما نجد عند ابن سينا، فلقد اعتنى " بعلم النفس عناية لا تكاد نجد لها مثيلا لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط، فآلمّ بمسائله إماما واسعا، واستقصى مشاكله وتعمق فيه تعمقا كبيرا، وأكثر من التأليف فيه إلى درجة ملحوظة . فيبين في " كتاب القانون " المشهور قوى النفس المختلفة عن طريق الأطباء، ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم . ويعقد في "الشفاء " فصلا مستفيضا يوضح فيه آراءه النفسية، ويعد من أغزر ما كتب في هذا الباب، ويلخص في ' النجاة ' هذا الفصل، ويصوغه في قالب مدرسي محكم . وفي 'الإشارات والتنبيهات ' ينظم نحو عشرين صفحة عقدا من مسائل علم النفس على اختلافها، وهذا العقد مملوء بالدرر النفيسة والجواهر الثمينة . وله تعليق على ' كتاب النفس ' لأرسطو وغير هذا كثير .

ومن بين ما توسع فيه ابن سينا محاولاته لإثبات وجود النفس، فهناك أمور تبدو لنا جلية واضحة، فإذا أردنا إثباتها تبين لنا أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورنا، ومنه إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، وقد قدم ابن سينا في هذا الإطار مجموعة فاخرة من الأدلة مثل البرهان الطبيعي السيكولوجي، وبرهان فكرة " الأنا " ووحدة الظواهر النفسية، وبرهان الاستمرار، برهان وحدة النفس، وبرهان الرجل الطائر أو المعلق في الفضاء "1.

وان اشرنا إلى ابن سينا فإن ذلك لا يلزم عنه عدم اشتغال غيره من الفلاسفة المسلمون بهذه القضية الهامة ، لما لها من دور في التأسيس لفهم بشري مرن وقابل للتطور عن الطبيعة البشرية، هذا الفهم الذي يمكن ان يساهم بدوره في امتلاك العقل المسلم لتصور واضح عن وجوده وعن مصيره سواء في هذه الدنيا أو في الحياة الأخروية، فقد جعلها ابن طفيل في روايته الفلسفية بمثابة المحرك الذي يحفز

الإنسان للمبحث عن الحقيقة والنظر في مختلف الموجودات، بحيث كان الحوار الفلسفي الذي يعيشه حي يحدث داخل النفس، كما جعلها ابن رشد "رسالة في النفس" و"كتاب النفس" جوهر رئيس يساهم في امتلاك الحق وبلوغ السعادة.

حيث قال بأنها جوهر عاقل أو عقل فعّال، وان وظائفها الأخرى لم تنشأ إلا بسبب اتصالها بالبدن وبين أن الصلة بين النفس والبدن وظيفية فقط لأنه ليس من الممكن أن تولد النفس مع الجسم جوهرًا واحدًا كما كان يقول أرسطو، أو كان اتصالها به اتصالاً عرضياً كما قال البعض، بل هو اتصال من نوع خاص يدق على الأفهام، لأنها لم تتصل به إلا لعناية إلهية وهي أن تبلغ كمالها بسببه.

تعريف النفس عند فلاسفة الإسلام: لقد اخذ الفلاسفة المسلمون تعريف النفس عن أرسطو دون تحوير أو تبديل في صيغته، فقد عرفوا النفس بأنها الكمال الأول لجسم آلي ذي حياة بالقوة، لكنهم قالوا بخلودها وبفناء البدن و أنها جوهر روحي قائم بذاته.

النفس عند ابن سينا: عالج ابن سينا موضوع النفس من ناحيتين، كطبيب وفيلسوف لا يخلو أيا من مؤلفاته من ذكر النفس والبرهنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها و وظائفها أو قواها²، وإن كان ابن سينا يقول بتنوع النفوس وذلك حسب تعدد وظائفها، هذه الأخيرة التي يمكن اعتمادها عند تعريف كل نفس، فهو يقدم تعريفا شاملا للنفس الإنسانية، حيث يعرفها كالاتي: هي ((كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية))³ وهي من حيث طبيعتها ((جوهر روحي بسيط يحل في البدن ليعي أمره بأمره وليديره، كما يحل الربان في السفينة ليدير أمرها ويعني بها))⁴ وهو يؤكد هنا ان النفس قوة وجوهر يحل بالبدن وهو مختلف عنه، وهو مصدر حدوث الكمال لهذا البدن.

² نذكر من هذه الكتب: الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات، كما له رسائل أخرى في هذا الموضوع منها، رسالة في معرفة النفس وأحوالها، ورسالة سماها (مبحث عن القوى النفسانية) كما عرض لذلك في (الرسالة العرشية) وله فيما عدا ذلك كله قصيدة مشهورة في النفس.

³ ابن سينا، كتاب النجاة، القسم الثاني، المقالة السادسة، ص 158.

⁴ ابن سينا، كتاب الشفاء، الجزء الأول ص 278.

وكي يبين ابن سينا طبيعة هذه القوة وعلاقتها بالبدن ومصيرها بعد مفارقتها عند الموت، كان يرى بضرورة البدا بالبرهنة على وجود هذه القوة أولاً، فإثبات الشيء عنده ضرورة منهجية ومعرفية يدب البدا بها قبل تعريفه وبيان طبيعته ((إن أول ما يجب ان نتكلم فيه هو إثبات وجود الشيء، الذي يسمى نفساً ثم نتكلم فيما يتبع ذلك))⁵ ولهذا قدم حملة من البراهين، أهمها:

- **البرهان الطبيعي:** يقول ((هناك أشياء تتحرك بذاتها وأخرى تتحرك بغيرها، فإذا كانت النفس هي التي تحرك البدن وجب أن تكون مختلفة عنه في طبيعتها؛ لأن الحركة صفة ذاتية يفها؛ في حين أنها ليست كذلك فيما يتعلق بالجسم)) ليؤكد أن الحركة ومختلف الوظائف التي تصدر في البدن ليست صادرة عنه بإرادته، بل هي نابعة من قوة مغايرة له وهي النفس ((إننا نشاهد أجساماً تحس وتتحرك بالإرادة؛ بل نشاهد أجساماً تتغذى وتنمو وتولد المثل، وليس ذلك بجسميتها، فبقي أن يكون في ذواتها مبادئ لذلك غير جسميتها. والشيء يصدر عنه هذه الأفعال فإننا نسميه نفساً))⁶.

- **برهان الإدراك والأفعال الوجدانية:** إذا كان الإنسان يشترك مع غيره من الكائنات في الحركات والوظائف التي تحافظ على وجوده الطبيعي، فإنه يختلف عنها بوظائف أخرى تتمثل في ما يتكون لديه من تخيلات و إدراكات وعواطف وانفعالات وجدانية، لها دورها في بناء التصورات والمواقف البشرية من مختلف المتغيرات، كالترك والفعل والغضب والحزن والضحك والإقبال والحكم بالخير والشر، وهي أفعال وجدانية ((وخص الخواص بالإنسان تصور المعاني العامة المجردة عن المادة كل التجريد والتوصل إلى معرفة المجهولات تصديقا وتصورا من المعلومات العقلية، فهذه الأحوال والأعمال والأفعال المذكورة هي ممّا يوجد للإنسان، وجلها يختص بها الإنسان، وإن كان بعضها بدنياً، لكنه موجود لبدن الإنسان بسبب النفس التي للإنسان))⁷.

⁵ ابن سينا، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 278.

⁶ المصدر نفسه ص 289.

⁷ الشفاء، المصدر نفسه ص 347.

- برهان وحدة النفس: فبالرغم من تعدد وظائف النفس وتنوع قواها، فإنه هناك علاقة وثيقة بين مختلف وظائف النفس، ومنه يخالف افلاطون القائل بوجود ثلاث نفوس أو ثلاث أجزاء في النفس في البدن الواحد، كل منها مستقل عن الآخرين، كما يخالفه في قوله أنّ اتصال النفس بالجسم هو سبب خستها وانقسامها إلى النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس العاقلة، بحيث تحل كل نفس في جزء خاص بالجسم وإن كانت مستقلة عن البدن وقائمة بذاتها، على خلاف الفيلسوف ابن سينا الذي يرى أن النفس جوهر بسيط وان وجوده بالبدن لا يشوّه طبيعته، حيث يظل واحداً على الرغم من تعدّد وظائفه، ((انه يجب لهذه القوى {الشهوانية و الغضبية والمدركة} رباط يجمع بينها كلها، وتكون نسبته إلى هذه القوى نسبة الحس المشترك إلى الحواس فأنتنا نعلم أن هذه القوى يشغل بعضها بعضاً، ويستعمل بعضها بعضاً وهذا الشيء لا يجوز ان يكون جسمان ولا اعتراض على أن النفس غير جسمن لأن هذا الذي ليس بجسم يجوز أن يكون منبع القوى، فيفيض عنها بعضها في الآلة، وبعضها يختص بذاتها وأما الجسم فلا يمكن أن تكون هذه القوى كلها فائضة عنهن فإن نسبة القوى إلى الجسم ليس على سبيل الفيضان، بل على سبيل القبول))⁸.

برهان استمرار الحياة النفسية- الوجدانية:- يقول في رسالة النفس الناطقة" تأمل ايها العاقل في أنك في نفسك هو الذي كان موجوداً في عمرك، حتّى أنك تتذكّر كثيراً ما جرى من أحوالك، فأنت إذاً ثابت مستمر لا شك في ذلك، وبدنك وأجزائه ليس ثابتاً مستمراً، بل هو ابدأً في الحّلّ والانتقاص ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدا ما تحلّل من بدنه، و لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب ربع وزنه، فتعلم نفسك أن مدة عشرين سنة لم يبقى شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة، بل جميع عمرك، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة و الباطنة" من خلال هذا النص الذي يثبت وجود النفس و وحدتها وكذلك تمايزها عن البدن، الذي من طبيعته التغير على الدوام عكس النفس فهي ثابتة ، حيث يشعر الإنسان بذلك فلا يعرف انتقاصها ولا انقطاعها -الديمومة- بالرغم من تعدّد وتنوع

⁸ الصفاء، المصدر نفسه،، ص362.

الأحداث فهي تبقى محفوظة وتسترجع إما بشكل إرادي أو عفوي الذاكرة، والنفس هي المسؤولة عن هذه الديمومة.

حدوث النفس: بالنسبة إلى ابن سينا النفس لم تكن قبل البدن، ومنه يخالف افلاطون، فهي حادثة تحدث أو توجد عندما يكون الجسد قد تهيأ و أصبح صالحاً لحملها. فالنفس تحمل نزوعاً طبيعياً لاستعمال البدن المخصّص لها حيث تنجذب إليه دون ان تتحدّ به اتحاداً جوهرياً-عبده الشمالي تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص373. حيث يقول " ان النفس الإنسانية لم تكن قائمة مفارقة للأبدان ثم حصلت في البدن " فهي لا توجد قبل وجود البدن الحامل لها، ودليله في ذلك انه لو كانت موجودة قبله لأقتضى الأمر أن تتعدّد ذواتها، لكنها في حقيقة الأمر واحدة الذات ومتفقة دائماً مع الجسد الحامل.

علاقتها بالبدن:

يرى ابن سينا ان النفس هي مصدر كمال الجسد، والكمال عنده نوعان وكلاهما مصدره النفس، هذه القوة الداخلية التي تسكن البدن، وتعتني به وتوظفه وتوجهه. **أمّا الكمال الأوّل:** فهو يتمثل في كونها مصدر للأفعال، فهي التي تكمل البدن وتنقله من الحياة بالقوة إلى الحياة بالفعل- او الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل- وهو الكمال الأوّل للجسم.

والكمال الثاني: وهي هنا تكمل الجسم القابل للحياة كي يصبح صالحاً لتصدر عنه كمالات أخرى يستعين بها للتوازن والاستمرار في الحياة- النمو ، الإحساس الإدراك العواطف...

طبيعتها: هي عند ابن سينا جوهر روحاني وكمال الجسم لكنها صورة مفارقة للجسم باقية بعده يقول " الجسم محتاج إلى النفس تمام الإحتياج في حين أنها لا تحتاج إليه في شيء، ولا يتعيّن جسم ولا يتحدّد إلاّ إذا اتصلت به نفس خاصة، بينما النفس هي هي سواء اتصلت بجسم أم تتصل به، ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس لأنها مصدر حياته وحركته، وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم، ولا أدل على هذا من أنها بذاته لا عرض من أعراض الجسم" إنها جوهر وصورة في آن واحد،

جوهر في ذاتها وصورة من حيث صلتها بالجسم. وهو يقول " أصل القوى المدركة والمحركة والحافظة للمزاج شيء آخر لك أن تسمية النفس، وهذا هو الجوهر الذي يتصرّف في أجزاء بدنك" وهذه القدرة التي تتميز بها النفس البشرية يرجع إلى القوى التي تتكوّن منها، وهي قوى لها دور أساسي في بناء الإنسان بدنيا ونفسيا وعقليًا، وإن كان يقول بتعدّد قوها فهو لا يقصد بذلك وجود انفصال بين هذه القوى ، إنّما هي قوى متكاملة فيما بينها تحفظ الجسم وتحقّق له مختلف الكمالات، لكن كل قوة تختص بوظائف معينة ولها مستواها الذي تؤثر فيه في الجسم. وتتمثل في القوة النباتية التي هي "كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولّد ويربو ويتغذى" وهي قوة مشتركة فيها ثلاث قوى الغذائية منها توجه الجسم إلى التغذية، والقوى المنمّية تجعل الجسم يبلغ كماله في النشوء بزيادة متناسبة في أقطاره طولاً، من الجسم الذي هي فيه يشبهه بالقوة، وتفعل فيه فيصير شبيهاً بالفعل، أيّ جسم آخر. النفس الحيوانية: وهي "كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات بالإرادة" وهي تحتوي على قوتان محرّكة ومدركة (مدركة من الداخل، مصوّرة - متخيلة-) وتأتي في الآخر النفس الإنسانية التي ينفرد بها الإنسان عن بقية الكائنات وهي "كمال أول لجسم طبيعي بلي من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكليّة وتسمى بالقوة الناطقة وهي قسمان (قوة ناطقة عاملة وقوة ناطقة عالمة).

وعند الحديث عن هذه القوة الإنسانية، يقصد القوة العقلية التي تكون عبارة عن استعداد فطري في الإنسان يمكن ان تصبح قوة ممكنة عند بداية التعقل واكتساب بعض المعقولات البديهية.

وهذا ما يأخذنا لتوضيح أنواع العقل عند ابن سينا وهي تتمثل في:

- العقل بالفعل: يتمثل من الاستقبال إلى التوظيف والاسترجاع والتخزين والتحليل والانتقاء.

ا- لعقل المستفاد: وهو الذي حضرت فيه المعقولات، يطالعها ويعقلها بالفعل ويعقل انه يعقلها بالفعل.

- العقل القدسي: مختص بالأنبياء.

يقول ابن سينا " إنّ من البشر من يكون أكثر من غيره استعداداً لقبول المعارف بسهولة فائقة فتفيض على مخيلته أفعال الروح القدسي وترتسم فيها الصور التي في العقل الفعّال، ويكون نبياً صاحب عقل قدسي"

خلاصة:

وفي هذا إثبات لوجود النفس وتوضيح لطبيعتها او ماهيتها الروحية كونها شيء وراء البدن، هذا الطرح الذي من شأنه ان يؤسس لثقافة بشرية عن طبيعة الوجود البشري، ودور كل جزء يساهم في تكوينه والحفاظ على توازنه المادي والروحي، الأمر الذي يؤكد على ضرورة الاهتمام بكل جزء والنظر في ما يحتاجه كل جانب لبلوغ السعادة. وان كان هذا الطرح الذي تبناه الفلاسفة المسلمون ولید نظر عقلي فهو كذلك نابع من عقيدة التوحيد وما يحمله النص الديني من توجيهات في هذا الموضوع، وهي توجيهات وإن كانت تؤكد محدودية النظر البشري في موضوع الروح فهي لا تغلق باب النظر في مسألة النفس البشرية وأهمية الاهتمام بتزكيتها ونبليها.